أصداء من الجزيرة

من بعيد

أكتب هذا وما تزال ملء مسمعى أصداء آتية من بعيد . . . أصداء قوية لسمر أدبى حافل ، ملأ إحدى أمسياتنا فى شرق الجزيرة حين اجتمعنا بإخوتنا أعلماء « القطيف » ، وأدبائها على ساحل الخليج .

* * *

كانت زيارتنا لهذه المنطقة النائية على غير موعد . فما دار بخلدنا ونحن نتهيأ للسفر إلى جزيرة العرب ، أننا قادرون على أن نبلغ أقصى شرقها ، فى رحلة لا تتجاوز خمسة عشر يوما ، لولا رعاية كريمة من جلالة عاهل الجزيرة ، هيأت لنا أن نذهب حيث شئنا على متن الطائرة ، فطُويت لنا الأبعاد واستطعنا أن ننتقل من الحجاز إلى نجد فالأحساء فالخليج العربى .

هنالك ذكرنا «القطيف» فيما ذكرنا ، ورأينا حقا علينا أن نلم بمكان لعب فى تاريخنا الدينى والسياسى والأدبى دوراً ذا بال .

وما كان يُغفر لنا أن نكون بالأحساء ثم لا نزور منطقة البحرين التى كانت منزل « بكر بن وائل ، وعبد القيس »

وفى ربوعها نشأ شعراء فحول ، لهم فى الأدب العربى مكان أى مكان ! ومن وراء مرتفع « الصَمَّان »[١] الصخرى الذى يتوسط بينها وبين « الدهناء » فيعزلها عن « نجد » ، تسللت جموع «القرامطة »[٢] فى القرن الثالث الهجرى ، حتى إذا جاوزوا الأحساء اندفعوا كإعصار مارد ، يلقون الرعب فى القلوب ويعيثون فى الجزيرة فساداً ، ويأخذون طوائف الحجيج عاماً بعد عام ، فيقتلون مسرفين فى القتل ، ثم يعودون بالأسرى إلى هَجَر[٣] . وما جاء القرن الرابع حتى كان زعيمهم « أبو طاهر الجنابى القرمطى »[٤] يتسلق أسوار « البصرة » فى نحو ألفين من رجاله ، ويغلب على الكوفة ويتسلم الأنبار ويفتك بعسكر للدولة عدته بضع عشرات من الألوف ! .

---

(١) الصمان : مرتفع صخرى متاخم للدهناء . فيعانه عذبة المياه ، ورياضه معشبة . انظر معجم ياقوت ٥/٣٨٣ .

(٢) القرامطة : جماعة ثورية ، عاثت فى الشرق الإسلامى فساداً فى القرن الثالث الهجرى ودوخت الدولة العباسية .

(٣) هجر : قاعدة البحرين ، وكانت مقر القرامطة الذين أرادوا أن يجعلوا منها المركز الدينى للإسلام ، بدلا من مكة . راجع (تاريخ أبى الفدا ٢/٩٠ ، وبلدان ياقوت ٨/٤٤٦) .

(٤) أبو طاهر القرمطى : سليمان بن الحسن أبى سعيد . زعيم القرامطة مات بالجدرى فى هجر سنة ٣٣٢ هـ . راجع تاريخ أبى الفدا ٢/٩٠ .

أجل ، كان حقًّا علينا ونحن فى الأحساء أن نلم بالقطيف ومنطقة البحرين ، فضينا ونحن نردد قول الشاعر :

وتركْنَ « عنترَ » لا يقاتل بعدها
أهلَ « القطيف » قتالَ خيلٍ تنفع .

وقول الآخر :

نصحتُ لعبد القيس يوم « قطيفاً »
فما خير نصح قيل لم يُتقبلِ ؟
فقد كان فى أهل القطيف فوارسٌ
حماة إذا ما الحرب ألقت بكلكل !

* * *

اتجهت بنا السيارات إليها فى الطريق الصحراوى المعبد من ميناء « الدمام » ونحن نرنو فى تأمل صامت إلى الصحراء الممتدة ، وقد أذابت شمس الأصيل فيها أشعتها الذهبية الغاربة .

ولاحت لنا « القطيف » من بعيد ، واحةً ناضرة على حدود الصحراء ، وجنة خضراء على حافة القفر المجدب ، ومراحاً عامراً شمالى « الربع الخالى » . وإذا ذاك بدأت السيارات تتعثر فى دروب ضيقة ، تحف بها البساتين عن يمين وشمال ، وتجرى فيها الغدران فياضة بمياه العيون والآبار .

وتهادى إلينا نسيم المساء رخيًّا عليلا معطراً بأريج الأزهار وشذا الثمار ورائحة العشب ، وانبثقت أضواء الشفق الوردى فتوجت هامات النخل الباسقات ، ثم نفذت من بين الفروع والأغصان ، واستلقت فى وهن وتراخ على صفحة الغدير المتألق وفوق العشب الندى ، غير مكترثة لصراخ « الكلاكسون » ولا عابئة بنباح الكلاب فى آثار القطعان .

وكذلك استغرقنا نحن فى خمول هنيء ، لم نكد نفيق منه إلا على هتاف أهل « القطيف » وقد خرجوا بمشاعلهم يستقبلون ضيوفهم أبناء النيل .

ولم يكتفوا منا بحفلة الاستقبال فى دار « الأمير حَمُّود ، أمير القطيف » أوجولة عابرة فى المنطقة ، بل دعونا إلى مجلس حافل أعد لنا فى بستان الوجيه « السيد عبد الله إخوان » أحد الأدباء الأعيان .

وكانت أمسية لا تنسى !

لم يبق فى « القطيف » من لم يسع إلى مجلسنا هناك ليلقى إلينا كلمة تحية وعتاب :

أما التحية فلمصر العزيزة الغالية ، قبلة أنظار الشرق العربى ، ومهوى عقول أبنائه ، وكعبة الرواد والقاصدين من

طلبة العلم وراغبى الثقافة .

وأما العتاب فلأدباء مصر الذين نسوا أن فى شرق جزيرة العرب واحة اسمها « القطيف » شاركت فى صنع تاريخنا الإسلامى وتركت فى تراثنا الأدبى أثرها الباقى .

إن « دارين »[١] ما تزال هناك ، ترجع صدى أغانى « النابغة الجعدى »[٢] و « الفرزدق »[٣] وغيرهما من الشعراء الذين لم يجدوا ما يشبهون به عَرف الحبيبة أذكى من مسك دارين . وإن بساتين « هجر » باقية حتى الساعة ، مثمرة غناء ، تبتسم للضاربين فى الصحراء ، وتعدهم بالظل والتمر والماء ، كما كانت فى قديم الزمان يوم ضرب العرب بها المثل فقالوا : « كحامل التمر إلى هجر »

---

(١) دارين : فرضة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند ، وقد تغنى الشعراء بمسكها . راجع (معجم ياقوت ٢/٥٣٧ ومعجم ما استعجم للبكرى ١/٣١٥) .

(٢) النابغة الجعدى : أبو ليلى ابن عبد الله — شاعر جاهلى مقدم ، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وأنشده شعراً فدعا له ألا يفض الله فاه . راجع (طبقات الشعراء لابن سلام ٤٣ والأغانى ٥/١ ط دار الكتب) .

(٣) الفرزدق : همام بن غالب بن صعصعة . أحد أمراء الشعر الثلاثة فى العصر الأموى ، وأبرعهم فى الفخر . انظر (الأغانى ٩/٣٢٤ ط دار الكتب) .

وهناك، ما تزال آثار من « الكُعَيْبة » تروى قصة ذلك الحلم الأحمق الذى راود « أبا طاهر القرمطى » وزين له أن يجعل من « هَجَر » وارثة لمكة ، فوافى البلد الحرام إبان موسم الحج عام ٣١٧ هـ. ، ودخله فى تسعمائة من شيعته . فقتل أمير الكعبة، وفتك بألوف من الحجيج فى المسجد الحرام وفى فجاج مكة ؛ وقلع باب الكعبة ، وانتزع « الحجر الأسود » ثم اعتلى سطح البيت وهو يصيح :

أنا بالله وبالله أنـــا يخلق الخلقَ وأفنيهم أنا !

قيل إنه قتل بفجاج «مكة» وظاهرها زهاء ثلاثين ألف نفس، غير مَنْ سبى من نساء وغلمان ، وأقام بمكة ستة أيام ثم عاد فى موكبه الحافل يحمل « الحجر الأسود » إلى « هجر » فبقى بها هذا الأثر المقدس نيفاً وعشرين سنة ، حتى أعاده القرامطة إلى مكة عام ٣٣٩ هـ . وهم يقولون :

ـــ رددناه بأمر من أخذناه بأمره !

أما تستحق بلاد البحرين بعد هذا لفتة من أدباء مصر ، ودارسى التاريخ الإسلامى ؟

إنهم ليحجون إلى الحجاز ألوفاً ذات عدد كل عام ؛ وإن منهم من ينتدب للعمل أو التدريس فى الأحساء واليمن

والكويت وحضرموت ، فما ألمّ بالقطيف من كل أولئك زائر !

وهى على الهجر الأليم ، لا تكف عن ذكر مصر ، وتتبع أخبارها العلمية والأدبية . بل هى فى معزلها النائى المهجور على ساحل الخليج ، تستورد البضاعة الأدبية من ضفاف النيل ، وتعرف عن سير الفن والحياة بها ، وأعلام الأدب والفكر فيها ، ما يجهله المصريون أنفسهم ، غير قلة من الدارسين .

كم تألمت وأنا أصغى إلى حديث أدباء القطيف عن معاركنا النقدية ومذاهبنا الفنية ؟! كم خجلت وأنا أرى فى أيديهم كتبنا ومجلاتنا ، نحن الذين لا نشعر بهم أو نلقى إليهم بالا ؟

كم تأثرت وأنا أسمع الشاعر « عبد الرسول الجشى » يعرفنا ببلده الذى هو قطعة من وطننا الشرق العربى :

هذى بلادى وهى ماض عامر
مجداً ، وآت — بالمشيئة — أعمرُ
ألقى عصاه على فسيح ضفافها
وعلى الجزائر ، عالمٌ متحضر
وأذلّت التيار تحت شراعها
فلها عليه تحكم وتأمّر

وترى السفائن بالتوابل والحلى
والعطر من بلد لآخر تحمل

شهدت موانى الهند خفق قلوعها
فكأنها فوق المياه الأنسرُ

ولها على وادى الفرات ودجلة
فضلُ المعلم وهو فضل يؤثر

* * *

وأتت « ربيعةُ » وهى غُرّة يَعْرُب
وأذبها يوم الكفاح وأصبر

وأعزها جاراً وأكثرها قرى
إذ يمحل البلد الخصيب ويقفر

فرأت بها الوطنَ الخصيبةَ أرضُه
للماء فيه تدفق وتفجر

والنخل وارفة الظلال كأنها
جيش كثيف بالخليج معسكر

تهدى لها الصحراءُ فى السحَر الصَّبا
فتمرُّ كالحلم اللذيذ وتخطر

والبحر يهديها اللآلىء زينةً
وتجارةً ، فيها الغنى يتوفر
وكصفحة المرآة جو مشرق
وكلوحة الفنان ريفٌ مزهر

* * *

ورأت بها لغة العروبة بيئة
شعرية توحي ، وجوًّا يسحر
فإذا الضفاف نشائد مسحورة
وكأنما في كل حلق مزهرُ
الملهمون المبدعون تسابقوا
فيها بمدرجة الخلود وشمروا
شعراء « عبد القيس » تهزج بالهوى
فيجيبها من « بكر » رهطٌ أشعر
فيها جنى « ابن العبد »[1] حلو شبابه
راح ، وريحان ، ووجه أقمر

---

(١) ابن العبد : طرفة ، الشاعر الجاهلي المشهور .

وخيال « خولة »[١] يستثير غرامه
فيظل فى أطلالها يتحسر
ولجعفر الخطّى فن خالد
وروائع غنّى بهن السُّمّر

* * *

على مثل هذا كان يدور السمر فى أمسيتنا تلك ببستان الأخ « السيد عبد الله إخوان » فى القطيف والآن وقد رجعت إلى مصر ، أرى حقًّا علىّ ان أنقل إلى قومى بعض أصداء ذاك المجلس الأدبى ، ليعلموا أن على ساحل الخليج فى أقصى الشرق من جزيرة العرب . علماء مجتهدين وأدباء ناهضين طموحين . يتطلعون إلى مصر ويهتفون باسمها ، و« يعتزون — كما قال الأخ السيد حسن بن على أبو السعود — بما بيننا من روابط القربى واللغة والعقيدة . ويكنون لأبناء الكنانة كل تقدير ومودة ، ويرون فى الثقافة المصرية المورد العذب النمير » .

روابط عزيزة تجاهلناها نحن فلم نؤد ما لها علينا من

---

(١) خولة : حبيبة طرفة ، وفيها يقول فى مطلع معلقته :
لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

حق ، وتشبث بها إخواننا هناك . فما كادوا يرونا حتى هتف مضيفنا الكريم :

« ليت هذه الزيارة التى طالما رنونا إليها ، تكون فاتحة تعارف وهمزة وصل بيننا وبين مصر الشقيقة . وما أمسّ حاجتنا إلى هذه الأخوة وذاك التعارف ، حتى نصبح — نحن بنى الضاد — كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء » .

وقال الأديب « محمد سعيد الشيخ الخنيزى » :

« إن بيننا وبين الصفوة الأمناء من أدباء مصر ومفكريها ، تياراً متصلا فى الفكر والروح ، مهما تنأ بنا الديار ، وتفصلنا بيداء وبحار :

إن القطيف ومصر شعب واحد
فى المبـــدأ السامى وفى الأفكار
فمتى نرى هذى الصفوف توحدت
ترمى العدو بمارج من نار ؟ ! .

وقال الشاعر « محمد سعيد الجشى » :

هذى القطيف شيوخها وشبابها
هبت تحييكم بكل لسان

فلتخبروا « مصر » العزيزة أننا
إخوان فى الأوطان والأديان
هذى ربوع العُرْب مهد واحد
لا فرق بين بعيدها والدانى
وشعوبها أمم موحدة الهوى
فى كل ما يرمى لرفع كيان

* * *

لبيكم أيها الإخوان الكرام ! هأنذى أبلغ الرسالة وأسجل أصداء ما سمعت منكم هناك ، فهل ترى يبلغ صوتى مسمع الأدباء والدارسين من بنى وطنى ؟ !

أرجو ، وآمل . . .

وتحية طيبة ، يحملها هذا الكتاب إليكم وإلى أهل الجزيرة جميعاً . . .

من
بنت الشاطئ

هليوبوليس : مايو ١٩٥١

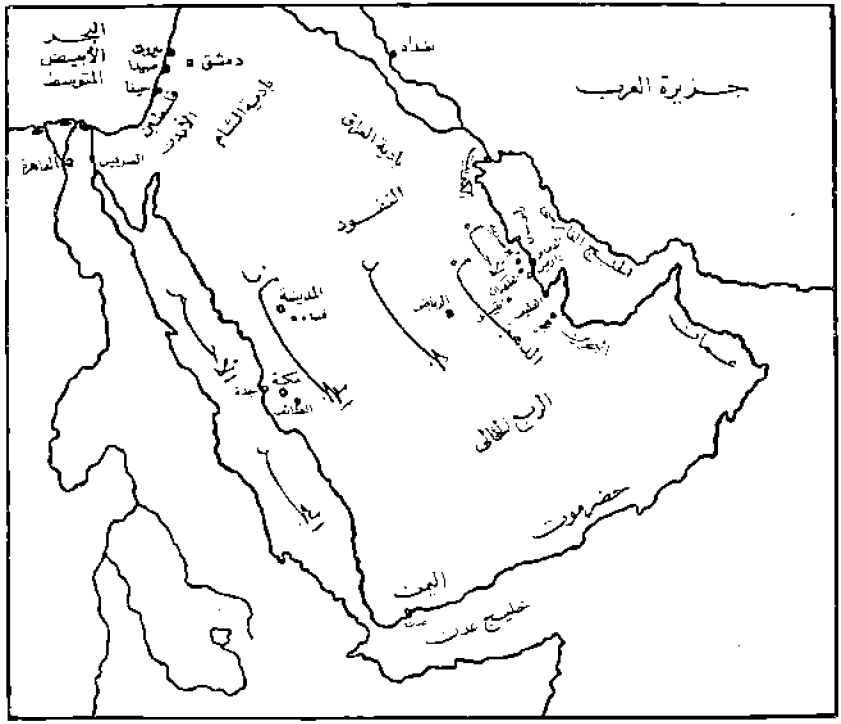
جزيرة العرب
البحر الأبيض المتوسط
دمشق
بغداد
بادية الشام
بادية العراق
النفود
السويس
القاهرة
المدينة
مكة
الطائف
الربع الخالي
حضرموت
اليمن
عمان
الخليج العربي
خليج عدن